وإنك لعلى خلق عظيم

الخطبة السادسة عشرة

دخـــول المدينة

عباد الله ما زلنا مع سيرة المصطفى، هذه السيرة العطرة، هذه السيرة النضرة، ما زلنا نسير في رياض هذه السيرة، نقتبس من هذه السيرة العبر والعظات، التي تنمي الإيمان في قلوبنا، وتزكي الأخلاق في نفوسنا وتلهب الكفاح في أعمالنا، وتغرينا باتباع نبينا محمد ﷺ.

فالناس أخلاط متنافرون لا تستقيم بهم السبل يوما إلا شردت أياما ولا يتبعون الحق حينا إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحيانا.

فبين نفحات العطر، وومضات الإشراق، نستكمل سيرة عظيم الأخلاق سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد ﷺ.

وقد انتهينا في الخطبة الماضية من الهجرة النبوية وعلمنا مدى العناء، والمشقة، والجهد الذي لاقاه النبي ﷺ والصحب الكرام ﷺ حتى وصلوا إلى المدينة، وها هم أهل المدينة ينتظرونه، فهيا بنا عباد الله ننتقي هذه الباقات العطرة:

"وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ، فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى (مسجد قباء)، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالَا: لَا، بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ، وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ:

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرْ ... هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَهْ ... فَارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي"[1]، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: "وَلَمْ يَبْلُغْنَا فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَمَثَّلَ بِبَيْتِ شِعْرٍ تَامٍّ غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ"[2].

فأشرفوا ينظرون، ويقولون: جاء نبي الله، فأقبل يسير حتى نزل جانب دار بني أبي أيوب. وأشرقت المدينة بقدومه ﷺ، وسرى السرور إلى القلوب بحلوله بها، فعن أنس رضي الله عنه قال: "مَا رَأَيْتُ يَوْمًا كَانَ أَحْسَنَ وَلا أَضْوَأَ مِنْ يَوْمِ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"[3]، وعن البراء رضي الله عنه قال: "فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ"[4]، وكان رسول الله ﷺ راكبًا راحلته وسارت به من ديار بني سالم متجهة نحو المدينة، وأهل كل

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩٠٦).

[2] صحيح البخاري رحمه الله (٦٠/٥).

[3] أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده (١٤٠٦٣)، وقال الألباني رحمه الله في تخريج مشكاة المصابيح: إسناده صحيح (٥٩٠٧).

[4] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩٢٥).

دار من دور الأنصار يمر بها إلا يستقبله رجالها قائلين: هلم إلينا يا رسول الله إلى العدد والمنعة، وهم ممسكون بخطام ناقته وهو يقول: **"دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ"**[1]، وخرج أهل المدينة عن بكرة أبيهم، فامتلأت بهم الطرق، وامتلأت طرق هذه المدينة الطيبة، طابت مغانيها، وسلام على ساكنيها، وظهروا على سطوح المنازل نساء، وأطفالًا، ورجالًا، وهم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، وينشدون:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعْ[2]

إن الثلاث عشرة سنة قضاها رسول الله ﷺ بمكة من مبعثه إلى يوم هجرته كانت كلها آلامًا، ودموعًا، وأحزانًا، لم ينعم فيها رسول الله ﷺ بساعة سرور أو يوم راحة، ثم دخل ﷺ المدينة، نعم لقد كانت للحبيب ﷺ بدار الهجرة أيام مشرقة، إلا أن أكثر أيامها كانت محرقة، وسوف نشعر بأن السنين العشر ما كانت السنة الواحدة منها إلا عشر سنوات، فالعشر سنين كانت وكأنها مائة سنة أو تزيد، وذلك لما تم فيها من جلائل الأعمال؛ يُهيئ بلده، ويحبب فيها المهاجرين ﷺ، ويرسي القواعد التي سوف يسيرون عليها، بنى أمة عظيمة، أمة مستمرة منذ عهده ﷺ إلى يوم القيامة، أمة لو تمسكت بمبادئه التي أرساها؛ لأصبحت في عزة، وغلبة، ومنعة.

والمدينة عباد الله أحبها الرسول ﷺ وحببها للمهاجرين ﷺ، فقد كانت المدينة مكان وباء وحمى، وأصيب بعض الصحابة ﷺ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ؛ دعا الله ﷻ أن يحبب إليهم المدينة، وأن ينقل ما بها من وباء إلى الجحفة، فعن عائشة ﷺ قالت: **"لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ، قَالَتْ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ كَيْفَ تَجِدُكَ؟ وَيَا بِلَالُ كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَتْ: فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ:**

---

[1] أخرجه الطبراني ﷺ في المعجم الأوسط (٣٥٤٤)، وقال الهيثمي ﷺ في مجمع الزوائد (٦/٦٦): فيه صديق بن موسى، قال الذهبي: ليس بالحجة.

[2] رواه أبو الحسن الخلعي في الفوائد (١٠٢٠)، وضعفه الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٥٩٨).

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ، وَيَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ"[1].

ومن بركاته ﷺ على المدينة وأهلها أنه دعا لها بالبركة، قال ﷺ:"اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ"[2]، قال الحافظ: "أَيْ مِنْ بَرَكَةِ الدُّنْيَا، بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعَنَا وَمُدِّنَا[3]"[4]، قال النووي: "الظَّاهِرُ أَنَّ الْبَرَكَةَ حَصَلَتْ فِي نَفْسِ الْمَكِيلِ؛ بِحَيْثُ يَكْفِي الْمُدُّ فِيهَا مَنْ لَا يَكْفِيهِ فِي غَيْرِهَا، وَهَذَا أَمْرٌ مَحْسُوسٌ عِنْدَ مَنْ سَكَنَهَا"[5]، وروي أيضا قوله ﷺ: "لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُعْبُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ"[6].

ومما يزيد المدينة حبًا في قلوب المؤمنين ورغبة في المقام بها حتى الموت، قوله ﷺ: "مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ؛ فَلْيَمُتْ بِهَا، فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا"[7]، وعرف ذلك عمر رضي الله عنه فكان يدعو ويقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ، وَوَفَاةً بِبَلَدِ

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩٢٦)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٣٧٦).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٨٨٥)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٣٦٩).

[3] روه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٨٨٩)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٣٧٤).

[4] فتح الباري، لابن حجر رحمه الله (٩٨/٤).

[5] فتح الباري، لابن حجر رحمه الله (٩٨/٤).

[6] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٧١٢٥).

[7] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٣٩١٧)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٣٩١٧).

رَسُولِكَ"[1].

وهكذا عباد الله، فقد جعل الرسول ﷺ بفضل الله المدينة بلدا محبوبا للصحابة ﷺ نقية طاهرة، وأصبح على الرسول ﷺ الآن أن يهيئ المدينة لتكون نواة الإسلام والمسلمين إلى يوم القيامة، فتعالوا معي نرى ماذا فعل ﷺ.

من المعروف أن رجل العقيدة يسير طوعًا لها، ويجد طمأنينته حيث تقر عقيدته، وتلقى الرحب والسعة، والناس ينشدون سعادتهم فيما تعلقت به هممهم، فطالب الزعامة يرضى أو ينقم، وينشط أو يكسل بمقدار قربه أو بعده من أمله الحبيب، وهكذا طالب الدنيا، وطالب النساء، وطالب المال، إلى جانب هذه الأصناف تجد فريقا آخر من البشر لا يطيق الكف عن إسداء الجميل وبذل النصيحة.

ولقد عاش رسولنا ﷺ ثلاثة وخمسين عامًا في مكة حتى ألفها وألفته، لكنه اليوم يخرج منها إلى وطن جديد يرى فيه امتداد قلبه وثمار غرسه، وها هو رسول الله ﷺ يرسم معالم الأمة الإسلامية.

فإن الأمة الإسلامية ليست جماعة من الناس همها أن تعيش بأي أسلوب، أو تخط طريقها في الحياة إلى أي وجهة، وما دامت تجد القوت واللذة؛ فقد أراحت واستراحت، كلّا.

فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله، وتوضح نظرتهم إلى الحياة؛ فالمهاجرون إلى المدينة لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء، والأنصار الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العداء وأهدفوا أعناقهم للقاصي والداني لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق، إنهم جميعا يريدون أن يستضيئوا بالوحي وأن يحصلوا على رضوان الله، ومن هنا شغل رسول الله ﷺ أول مستقره بالمدينة بدعائم ثلاثة:

١. صلة الأمة بربها. ٢.صلة الأمة ببعضها.

٣. صلة الأمة بالأجانب عنها ممن لا يدينون دينها.

---

[1] أخرجه الإمام مالك رحمه الله في موطئه (٣٤)، وقال الألباني رحمه الله في إزالة الدهش (٣٧): ضعيف لانقطاعه.

أولًا: صلة الأمة بالله ويتمثل فى المسجد:

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: **"لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ نَزَلَ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فِي حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: فَأَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى مَلَإِ بَنِي النَّجَّارِ، قَالَ: فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِي سُيُوفِهِمْ، قَالَ: وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ رِدْفَهُ وَمَلَأُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ حَتَّى أَلْقَى بِفِنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ، قَالَ: فَكَانَ يُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلَإِ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا، فَقَالَ: يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي حَائِطَكُمْ هَذَا، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ، قَالَ: فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ: كَانَتْ فِيهِ قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَتْ فِيهِ خِرَبٌ[1]، وَكَانَ فِيهِ نَخْلٌ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، وَبِالْخِرَبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، قَالَ: فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، قَالَ: وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ[2] حِجَارَةً، قَالَ: جَعَلُوا يَنْقُلُونَ ذَاكَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُمْ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَهْ فَانْصُرْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ[3]"[4].**

واكتملت رسالة المسجد بمشروعية الأذان والصلوات الخمس في السنة الأولى، وكانت الصلاة ركعتين في الصباح والمساء قبل الإسراء[5].

ومن هنا نرى عباد الله أن أول ما بدأ به رسول الله ﷺ في بناء دولته الإسلامية المجيدة بناء مسجده النبوي الذي لا تشد الرحال إلا إليه، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى، وهذا

---

[1] فتح الباري (٧/٢٦٦)، لابن حجر رحمه الله: "تُسوِيَة الخَراب بأَن يُزال ما بَقِيَ مِنهُ ويُسَوَّى أَرضه".

[2] فتح الباري (٧/٢٦٦)، لابن حجر رحمه الله: "وهِيَ الخَشَبَة الَّتِي عَلَى كَتِف الباب".

[3] ثم بنى الرسول ﷺ حجرات الطاهرات أمهات المؤمنين على يسار المسجد.

[4] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩٣٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٥٢٤).

[5] كانت الصلاة قبل الإسراء والمعراج ركعتين صباحا وركعتين مساء، ثم بعد الإسراء والمعراج صارت ركعتين في كل صلاة من الصلوات الخمس، ثم زاد الظهر والعصر والعشاء ركعتين والمغرب ركعة.

يبين لنا أهمية المسجد في الإسلام، وكان المسجد النبوي هو الجامعة التي تخرج منها الأبطال الذين فتحوا قلوب العباد والبلاد بدعوة الإسلام، فلم تكن وظيفة المسجد مجرد مكان للصلوات الخمس، ولكنه كان مدرسة النبوة ومنارة العلم، كان المسجد هو البوتقة التي انصهرت فيها قلوب الصحابة ﷺ، وذاب فيها ما كان فيها من عصبيات، وتكبر، وتمرد، وكان المسجد كير القلوب الذي أخرج ما فيها من شرك، وحقد، وحسد، حتى صار الصحابة ﷺ أَبَرَّ الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفًا.

نعم عباد الله، إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي، فهو ساحة للعبادة، ومدرسة للعلم، وندوة للأدب.

وهذا البناء المتواضع هو الذي ربى ملائكة البشر ومؤدبي الجبابرة

في هذا المسجد أذن الرحمن لنبي أن يؤم بالقرآن خيرة من آمن به، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل، ولكن المسجد هو صلةُ العباد بربهم وصلا يتجدد مع الزمان، وتتكرر مع آناء الليل والنهار، فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد.

ولاحظنا عباد الله أن المسجد كان فراشه الحصباء، وأعمدته جذوع النخل، وسقفه الجريد، ومع ذلك خَرَّجَ مؤدبي الجبابرة ومعلمي البشر، فالنقش وزخرفة المساجد قد كرهها العلماء، وهم في ذلك بين مُحَرِّم ومُكَرِّه كراهة تنزيه؛ لأن الزخرفة والنقش يترتب عليهما معنى يخل بالحكمة، إذ من شأنه صرف قلوب المصلين عن الخشوع والتدبر، وشغلها بمظاهر الدنيا.

وهذا ما نَبَّه إليه عمر ﷺ، فقد أمر ببناء مسجد، فقال: "**أَكِنَّ النَّاسَ مِنَ الْمَطَرِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ فَتَفْتِنَ النَّاسَ**"[1]، ومن هذا يتبين لك خطأ ما يعمد إليه كثير ممن يهتمون بتعمير المساجد وتشييدها اليوم، حيث ينصرفون بكل جهودهم إلى التفنن في

[1] صحيح البخاري رحمه الله (٩٦/١)، وقال الألباني رحمه الله في كتاب دفاع عن الحديث النبوي (٤٣): رواه البخاري معلقا مجزوما به.

تزيينها، حتى أن الداخل إليها لا يكاد يستشعر أي معنى من ذل العبودية لله ﷻ، وكذلك فإن الفقراء لم يعودوا يستطيعون أن يتهربوا من مظاهر الإغراء الدنيوي إلى أي جهة، لقد كان في المساجد ما يُعَزّي الفقير بفقره، ويخرجه من جو الدنيا وزخرفها إلى الآخرة وفضلها، فأصبحوا يجدون حتى في مظهر هذه المساجد ما يذكرهم بزخارف الدنيا التي حرموها، ويشعرهم بنكد الفقر.

أيها الإخوة المسلمون عباد الله عليكم بالمسجد، وتدبروا لم بدأ به رسول الله ﷺ وجعله أول دعامة من دعائم هذه الحضارة الإسلامية، وتدبروا أيضا هذا الإهمال الواضح جدا الذي نحن فيه بالنسبة للمسجد، فمن المسلمين من لم يدخل المسجد إلا ليُصَلَّى عليه، ومنهم من لم يدخل المسجد إلا في صلاة الجمعة، وربما صلى خارجه، ومن المسلمين من يرى أن دخوله في هذه المساجد على سبيل الاختيار، ولكن كما قلنا: إن الرسول ﷺ بَيَّن في حديث الأعمى الذي أراد أن يستأذن منه[1] وفي غير ما حديث وجوب الصلاة في المسجد، ولكن الناس لما أعياهم بناء النفوس على الأخلاق الجليلة؛ استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة تضم مصلين أقزامًا.

فإن دور المسجد في الأمة الإسلامية له دور عظيم وخطير، له رسالة إيمانية، له رسالة تربوية، له رسالة اجتماعية، له رسالة إعلامية، له رسالة صحية، المسجد ليس فقط مكانا لنصلي فيه فقط، هكذا علمنا من سيرة النبي ﷺ.

الرسالة الإيمانية: أن يأتي الناس للصلاة، لذكر الله سبحانه وتعالى، وأن يكون الناس في صلاة الفجر كما هم في صلاة الجمعة، فقال تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾** ﴾[البقرة: ٤٣]، وأين يركع الراكعون إلا في المسجد، وقال النبي ﷺ:

[1] أخرجه أبو داود رحمه الله في سننه (٥٢٢)، وقال الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود رحمه الله (٥٢٢): حسن صحيح.

"مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ؛ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ"[1]، كلما تأتي المسجد يعد الله لك بيتا أو قصرا في الجنة، لِمَ؟ هذا يدل على أهمية وجود المسلمين في مساجدهم.

بل إنه في يوم كان مقداره خمسون ألف سنة والشمس فوق الرؤوس، ويغرق الناس في عرقهم ستوجد مجموعة بَيَّنَها النبي ﷺ سوف يظلها الله في ظله في يوم لا ظل إلا ظله، منهم رجل قلبه معلق بالمساجد[2]، إذن الرسالة الإيمانية بالمسجد لها دور هام.

الرسالة التربوية: المسجد ليس للرجال فقط وإلا ما الذي كان يفعله النبي ﷺ؟ ولِمَ قال النبي ﷺ: **"لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ"**[3]؟! ولِمَ كان النبي ﷺ يخصص وقتا يخاطب فيه النساء ليعرفهم أمور دينهم، إذا كان المسجد للرجال فقط؟! وكان النبي ﷺ إذا دخل الأطفال المسجد لا يعنفهم، بل إذا أراد أن يطيل في الصلاة وسمع بكاء صبي يتجوز في صلاته[4]، كان ﷺ يراعي الأطفال، ونحن الآن في المساجد نرى إذا دخل الطفل في المسجد فبكى أو أحدث ضوضاء أو ما إلى ذلك تجد الناس وكأنهم يتقربون إلى الله بإهانته أو طرده، مع أن الطفل سوف يستقي تربيته من الأمور الخارجية عنه، من مدرسته، من بيته، من شارعه، من التلفاز، من الإعلام، من أصحابه بالمسجد، فندع الطفل يأخذ تربيته من كل مكان، أما في المسجد فنأبى ذلك.

لا بد أيها الإخوة المسلمون عباد الله أن تراعي مساجد المسلمين هذا الأمر، تربية الأولاد، فليجعلوا مثلا للأولاد يوما في كل أسبوع يلعبون ويمرحون في مكان غير مكان الصلاة، فالسيدة عائشة رضي الله عنها كانت تقول: **"لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ، أَنْظُرُ إِلَى**

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٦٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٦٦٩).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٦٠)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٠٣١).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٩٠٠)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٤٤٢).

[4] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٧٠٧)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٤٧٠).

لَعِبِهِم"[1]، فالأطفال يلعبون، ويأكلون، ويتعلمون سيرة النبي ﷺ، ويحفظون بعض آيات الله البينات، هذه عقيدة سوف ترسخ في قلوب الأطفال من صغ رهم.

الرسالة العلمية: وهذه الرسالة هي أخطر رسالة من رسالات المسجد، فكان النبي ﷺ بعد الفجر يجلس في مسجده ويلتف المسلمون حوله فيعظهم ويعلمهم، وكان يخصص للنساء وقتا ليعظهم ويعلمهم، بل جعل مكانا في آخر المسجد يسمى الصُّفَّة يجلس فيه طلبة العلم.

فدور المسجد دور عظيم في ذلك، فالناس إذا اعتادوا المساجد وسمعوا الدروس؛ لوجدوا أن ما يقال في الإعلام وما إلى غيره ممن يتحدثون في الدين ويستهزئون بآيات الله ليس له أصل من الصحة.

فمن يريدون هدم الدين لهم أعوان؛ منهم الجهلة، ومنهم ناس يريدون الظهور، ومنهم من يريدون المال، ومنهم أناس على ملة أخرى يختفون خلف ملة الإسلام.

فمنهم من يقول أن الحجاب ليس فرضا، بعد كل هذه الآيات والأحاديث، فيستشهد بأن هذا كان في وقت النبي ﷺ فقط، فالمسلمون إذا تعلموا وسمعوا الدروس؛ لعرفوا أن ما قاله النبي ﷺ أو ما أقره أو في سيرته فهو حجة وقدوة للمسلمين إلى يوم القيامة، فكان البخاري رحمه الله إذا أراد أن يأخذ حديثا من أحد ذهب من المشرق إلى المغرب، فيراه يكذب على الغنم كأن يدعي أن في ثيابه طعاما حتى تأتي له الغنم، فأبى البخاري أن يأخذ منه، لِمَ؟ لأنه خدع الأغنام، فلا يأخذ منه حديث النبي ﷺ، بل كان يأخذ الحديث من الرجال الثقات الأئمة، ويثبت أنهم كانوا في عهد واحد، وفي وقت واحد، ويثبت اللقاء حتى يُدون حديث النبي ﷺ، فلما يأتي رجل يطعن في هذا تضحك من هذا الهراء، أما أنك تسمع لكل من يتكلم هكذا بدون أن تتعلم دينك، فسوف تصاب بمرور الوقت

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٥٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٨٩٢).

بهذه الآفات التي تسمعها لأنك لم تُفَعِّل دور المسجد العلمي في حياتك الشخصية.

ثم بدأ هؤلاء الذين يريدون هدم الدين في الكلام في الصحابة رضي الله عنهم، لأن الصحابة هم الذين أخذوا العلم عن النبي ﷺ ثم نقلوه للتابعين، فلا دفاع عن الصحابة فالدفاع عنهم هو انتقاص في حقهم، كما يقول ابن تيمية: **"وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ، إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ"**[1].

فالذين يتكلمون في دين الله هكذا في الإعلام لا خلاق لهم ولا دين، فالعيب منا نحن، فهم عندهم إحصائيات يعرفون عدد من يشاهدهم ويسمعهم، فالناس إذا لم يستمعوا لهذا الهراء، فهم من أنفسهم يسكتون، ونحن نتعلم ديننا في مساجدنا.

الرسالة الاجتماعية: أن يقف الناس صفا واحدا في الصلاة، فالذي يقف في الصف الأول ليس الغني أو الفقير، أو الوضيع أو الشريف، فالذي يقف في الصف الأول من يأتي أولا، فيقف الجميع في صف واحد، خلف إمام واحد، أمام إله واحد، على كتاب واحد، خلف قبلة واحدة، فتذوب هذه الفوارق، فكان النبي ﷺ يأتيه قوم عراة فقراء فيتمعر وجه فينادي الناس أن يتصدقوا عليهم.

الرسالة الصحية: فأحاديث كثيرة على أن الإنسان يأتي متطهرا متعطرا، ويقول الله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[التوبة: ١٠٨]، ويقول النبي ﷺ: **"لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ"**[2]، كل هذه الإرشادات الصحية تجمعت في خيمة الصحابية رفيدة رضي الله عنها، كانت تداوي في خيمتها الجرحى، فلو أن كل إنسان عنده أدوية زائدة أتى بها إلى مسجد قريب منه، ويشرف على هذه الأدوية أحد الأطباء من أهل المسجد، بحيث تعطى إلى المرضى الفقراء، لكان ذلك شيئا حسنا.

---

[1] مدارج السالكين (٨٢/١)، لابن القيم رحمه الله.

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٨٨٧)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٢).